العدول في المفردة القرآنية وأثره في تأويل السياق القرآني
- مقاربة تداولية -

الدكتور: المغيلي خدير
جامعة أحمد دراية أدرار

الملخص بالانجليزية:

in biting their making her in the eloquence, and in biting their making her in the grammatical assembly and his positions, and in biting their obligated her word of the speech to reasons and her discover about her inviter departure from intentionality and his extensions of impact, and the deviating hit in single Quranic he what our attention wrap up and tightening of brains our to the searching in secrets his, observers go away from him uncovering our about he blowup across circulating paths the contemporary Quranic speech grants precedence preceded him and his distinctiveness in marking projection circulating on single his, so overlap at that the detection the linguistic.

المقال:

إن الناظر في معاني الآيات القرآنية يحتاج إلى معرفة لسانية تمكنه من الوقوف على حركة المفردة القرآنية وتداولها في السياقات القرآنية، حين تزاحم الكلمة أخواتِها من الكلمات المنتمية إلى حقلها المعجمي، فتحل مكانَها وتسد مسدَها تنكيتا أو ترادفا بما يرجح مجيئها على سواها من المفردات الأخرى، ويعرف هذا الحلول والتموضع في الدراسات الأسلوبية المعاصرة بالعدول ويعني الاختيار الذي يؤول " إلى مبدأ واحد: مبدأ التحقق في الخطاب على أساس الاختلاف والتعارض مع ما لم يتحقق"(1) ، ولعل الغرض من هذا العدول في الخطاب القرآني هو محاجة المتلقي بما أورده القرآن الكريم قصد إقناعه والتأثير في نفسيته وإعمال فكره بالتدبر في آياته .

والعدول في اللغة من "عَدَلَ عن الشيء يَعْدِلُ عَدْلاً وعُدولاً حاد وعن الطريق جار وعَدَلَ إليه عُدُولاً رجع وما لَه مَعْدِلٌ ولا مَعْدولٌ أَي مَصْرِفٌ وعَدَلَ الطريقُ مال... والعَدْلُ أَن تَعْدِلَ الشيءَ عن وجهه تقول عَدَلْت فلاناً عن طريقه وعَدَلْتُ الدابَّةَ إلى موضع كذا فإِذا أَراد الاعْوِجاجَ نفسَه قيل هو يَنْعَدِلُ أَي يَعْوَجُّ وانْعَدَلَ عنه وعادَلَ اعْوَجَّ قال ذو الرُّمة وإِني لأُنْحي الطَّرْفَ من نَحْوِ غَيْرِها حَياءً ولو طاوَعْتُه لم يُعادِلِ "(2) ، فهو في اللغة بمعنى الميل والانحراف والحياد عن الشيء لغيره.

والمتأمل في التراث اللساني العربي يجد اختلافا في استعمال مصطلح العدول عند علماء العربية ، فقد تناولوه بأسماء كثيرة منها: العدول والانزياح والانحراف والخرق والخروج عن سنن اللغة والمجاز والالتفات.فكشفوا عبرها عن إشارات جليلة إلى مفهومه . فعند بعضهم خروج عن المعهود مثل ابن جني مؤيدا الأصمعي في ذلك فيقول: " أنك في المبالغة لا بدّ أن تترك موضعا إلى موضع إما لفظا إلى لفظ وإما جنسًا إلى جنس فاللفظ كقولك : عُراض فهذا قد تركت فيه لفظ عريض. فعُراض إذًا أبلغ من عريض... قال الأصمعيّ : الشيء إذا فاق في جِنسِه قيل له : خارِجيّ . وتفسير هذا ما نحن بسبيله

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك أنه لمَّا خرج عن معهود حاله أُخرِج أيضا عن معهود لفظه . ولذلك أيضا إذا أريد بالفعل المبالغة في معناه أُخرِج عن معتاد حاله من التصرف فمنِعه." [3] ، فكلام ابن جني يظهر معنى العدول في المفردات حين استعمال المتكلم المبالغة في كلامه، فيعدِل بها عن لفظ إلى لفظ آخر يحقق به مرادَه من الخطاب، ليترك اللفظ بذلك موضعه للفظ آخر يحقق مقصدية المتكلم من الخطاب، كلفظ عراض في مقابلته للفظ عريض. وهو العدول الذي عُرف عند الأصمعي كذلك بالخروج عن المعهود والمألوف من الكلام. " وقد أجمع علماء العربية قديماً على أن أسلوب القرآن العظيم خارج عن المألوف من كلام البشر، وهذا يبين تنبه العرب إلى هذه الظاهرة الأسلوبية بمفهوم مغاير، إذ أجازوا للشاعر مالم يجيزوه للناثر من عدول عن أصل اللغة، وظهر أكثر وضوحاً في العصر الإسلامي لوقوعه في لغة القرآن الكريم"[4] ، وقد سُبكت له الأقلام وكتبت حوله مقالات كثيرة تناولته بمسميات عديدة اجتمعت كلها على أنه كلام متفرد بأسلوبه.

ولذلك أورده بعضهم بمعنى الخروج عن العادة التي ألفتها ألسنة العرب في سننها وخطاباتها قبل مجيء الإسلام، ليُطل علينا القرآن الكريم بما يخالفها بغية المحاججة والتحدي والأعجاز والإقناع، ومن هؤلاء الرماني الذي يقول واصفاً ذلك: "إن العادة كانت جارية بضروب من الكلام معروفة منها: الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة"[5] ، فواضح من كلام الرماني أن الاختلاف بين القرأن وكلام العرب لم يكن في المفردات ولا في الحروف وإنما كان في طريقة نظمه لهاته الكلمات والحروف التي تراها تتساوق في التعبير القرآني تساوقاً عدل به القرآن عن أي كلام أراد مقارعته، فمفرداته يتهتى بعضها إلى بعض في نسج بليغ يكشف عن روعة أسلوبيته وعظيم شأنه.

ولم يكن عبد القاهر الجرجاني أقل شأنا من أقرانه فتحدث عن العدول في المفردات حديثا ترتاح له عقول المتدبرين ونفوس الحائرين ممن قصرت عقولهم في إدراك تداولية مفرداته وإعجازية نظمه، فيقول في ذلك: " وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [6] ، فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع...إن شككت، فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأُفردت، لأدَّتْ من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل ابلعي، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها."[7] ، فاختيار ابلعي والعدول عن غيرها من الألفاظ التي ترادفها ترادفا جزئيا في المعنى كسرط و شرب ...أنما راجع إلى موضعها في الآية حيث تآلفت واتسقت مع الألفاظ الأخرى التي جاورتها في السياق القرآني صوتاً ودلالة.

وانطلاقا مما قاله الجرجاني "فإنه يمكن الاعتماد على تداخل البعدين الأسلوبي والتداولي، في مقاربة المفردة القرآنية حجاجياً. ويمكن أن نضرب على ذلك مثالاً:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- قوله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) (8).

حيث نلاحظ أن موقع مفردة 'بنانه' يشذ عما جاورها من الفواصل، حيث تنتهي بالميم المتبوعة بالهاء: القيامة، اللوامة، عظامه...أمامه...هذا الاستعمال يحدث في القول ضربا من التبئير focalisationويلفت النظر إليه، بحيث تسعى الأذهان إلى محاولة تأويله وتعليل خروجه عن مجاراة سياق نظم الفواصل المجاورة له." (9)

فنظرة إلى التداولية المعاصرة واهتمامها بالخطاب يكشف دقة القرآن في التعبير عن كل مبادئها بل سَبْقِهِ لكثير مما جاءت به، مما يجعلها خاضعة له تحقيقاً ودراسة، كونه خطابا إلهيا تعدت لغته حدود البشر في الفعل الكلامي من حيث إنجازُه المتصل بقيمة الخطاب وعداً ووعيداً وتوكيداً وغيرها من وجوه الإنجاز التداولي ومن حيث تأثيرُه بالقول تصريحاً وإضماراً، ومن خلال فعل القول نفسه، عند إنتاج التركيب صوتا أوعلامة لسانية تتمظهر في وحدات مفرداتية قرآنية تلائم السياق(10) .

ولعل الواقف على تداولية مفردات القرآن الكريم في استعمالها ضمن نطاق التواصل اللغوي للخطاب القرآني ، يدرك أنها علامات تعانق أذهان المتخاطبين أو المؤولين للخطاب وتأسِر عقولَهم ونفوسهم قبل أن تكون رموزا تحمل دلالات، وهي علاقة تداولية بامتياز نمت في حضن كتاب الهي إلى أن كشفت عن وجودها التداولية المعاصرة، التي حاولت جاهدة في بداية ظهورها وعبر الدلائلية اللسانية أن تبحث عن الصلة القائمة بين العلامات ومستعمليها(11) كمفردات خطابية يفاضل المتكلم بينها تبعا لمقصدية خطابه وإنجازه لفعل الكلام.

ومن هنا فإن إدخال مفهوم القصدية في فهم العدول الحاصل في المفردات القرآنية مبدأ تداولي يظهر لنا السر الدفين وراء توظيفها واستعمالها كفعل كلامي منجز، ويبرز للمتلقي قوة المحاججة في اختيار المفردة القرآنية دون غيرها من المفردات التي لا تقل شأنا عنها ولا ينبو جرسها عن جرس أخواتها، لتحصل المفاضلة ويحدث العدول تبعا لقصدية المُخاطِب.

وقد تجلت مقولة القصدية عند أهل التداول " بالخصوص، في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب، في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية ...ومن ثم فالفعل الكلامي يراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة...ولذلك يصح أن تعد تلك المعاني والمقاصد التواصلية أفعالا كلامية...باعتبار أننا لا ننظر إليها على أنها مجرد دلالات ومضامين لغوية وإنما هي فوق ذلك إنجازات وأغراض تواصلية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية..." (12) ، وهنا نتسائل ما الفعل أوالموقف الاجتماعي الذي صنعه استعمال لفظة بنانه دون غيرها في الآية السابقة؟

فهذا التدبر يجعلنا نستشعر من السؤال أهمية التأويل من جهة وخطورته من جهة ثانية، ذلك أنه يتوجب علينا إعطاء تأويل يتلائم ومعنى المفردة داخل السياق، دون أن يفصلها عن بعدها الحجاجي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومقصدها الذي وضعت من أجله، فلا يتم تأويل السياق إلا بالنظر إلى أسباب العدول في المفردة القرآنية مقترنا في الآن ذاته بأسباب النزول في الآية القرآنية كلها، لنرجح تأويلا لرجاحته، أو نرد آخر لبداهته أو فساده. وفي ذلك تدبر يوصل المؤول إلى التفسير الصحيح.

فقد فسر المفسرون القدامى كالسيوطي مثلا لفظ البنان في قوله تعالى: (عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ) بقوله: " وهو الأصابع أي نعيد عظامها كما كانت مع صغرها فكيف بالكبيرة"[13] ، وتأويله هذا لسياق الآية الكريمة يختلف عن التأويل المعاصر الذي أخذ بعدا علميا أشار إلى موقف اجتماعي يختبيء في ثنايا السياق القرآني وتعبر عنه مفردة البنان بمركزيتها الدلالية ومحوريتها في التعبير القرآني.

فذهب بعض المهتمين بالتفسير القرآني " الناظرين في الإعجاز العلمي في القرآن إلى أن الآية تشير إلى معجزة البصمة التي لا تتكرر بين إنسان وآخر. فكيف يمكن استخلاص قولٍ يتلائم مع معنى الآية ومعنى المفردة"[14] ، في ظل وجود فرق غير شاسع بين التأويل القديم والتأويل المعاصر لمعنى الآية رغم إقرارنا بصحة الاثنين. واجتماعهما في الموقف الاجتماعي الذي أصبح يعيشه الإنسان في ظل انتشار الجريمة والاختلاس والسرقة والتزوير، فإذا كان السيوطي أشار إلى أن الأصابع يعاد بناءها رغم صغرها بقدرة القادر المقتدر فإن الجريمة كموقف اجتماعي إذا وقعت في عصرنا يعيد المحقق بناءها وحدوثها وطريقة حصولها انطلاقا من بصمات الأصابع ليكشف عن الفاعل الحقيقي بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك تحقيق للأمن والأمان في المجتمع وإرساء لقواعد الشريعة وقوانينها، ولولا الخالق سبحانه الذي أودع هذه المعجزة في كتابه وخلقها في الإنسان ما استطاع المحقق في الجرائم الوصول إلى ذلك ولربما كان الخطب أعظم بعدم وجودها وحشاه سبحانه أن يغفل عن حقيقة الإنسان وأسرار وجوده.

فبالنظر إلى المنطلق الذي كان وراء استعمال مفردة البنان والعدول عن مفردات أخرى يتبين لقارئ القرآن الكريم ذلك البعد التداولي بين صاحب الخطاب سبحانه وتعالى وبين المتلقي في بيان المقصدية وراء العدول المفرداتي مقصدية أرادها سبحانه لإقناع المخاطَبِ ومحاججته بمضمون كتابه ودعوته إلى تدبر معانيه وتجسيدها في واقعه، كمواقف اجتماعية تلقي بظلالها على سلوكاته وتصرفاته وأفعاله. لتكون هذه المواقف أسمى معاني تداولية الخطاب القرآني التي أرادها صاحب الخطاب جل جلاله.

والذي يجب التركيز عليه في تداولية المفردة القرآنية والوقوف على محوريتها في السياق القرآني ما يعرف في التداولية المعاصرة بالبؤرة التي "تسند إلى المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزاً في الجملة"[15] ، فينظر لها من حيث وظيفتُها في التركيب اللغوي، سواء تعلق البحث بطبيعة هاته الوظيفة،أو بمجالها. ومجال وظيفة البؤرة في الآية القرآنية السابقة يحيلنا إلى التمييز فيه بين بؤرة المكون وبؤرة الجملة[16] فالأولى دل عليها لفظ البنان باحتلاله موقعا في السياق لفت انتباه المتلقي لذلك الخطاب، أما الثانية فهي التي بنيت عليها معانى السياق كلِه وتساوقت عبر وظيفتها مفرداتُه وحروفُه.

ومن هنا فإن العدول في البؤرتين يقوم أساساً على طبيعة الإسناد الذي جسده تعالق البؤرتين في التركيب، "مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وُضع، علةٌ تقتضي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كونَهُ هناك، وحتى لو وُضعَ في مكان غيره لم يصلح." [17] ، وهذا ما يجعل السبب وراء استعمال لفظ البنان في الآية السابقة يتجسد في قيمته الإخبارية وتميزها عن غيرها، ثم في إشارته العلمية الإعجازية التي برهنت على عدول الخطاب القرآني بهذا المؤشر البيولوجي في طرف الأصابع عن الخطاب العلمي الإنساني برمته. بفعله الكلامي الذي حمل سمة الإنجاز والتأثير .فقد تداخل في هذا العدول القرآني فعل القول وفعل الإنجاز وفعل التأثير[18] ، فالأول عبرت عنه ألفاظ الآية الكريمة وتراكيبها ومعانيها، ثم إيقاعها الذي أضفى على الخطاب موسيقى سحرية سحرت نفوس المتلقين له بصدق بيانها وثبوت حقيقتها، فمثلت الهاء في ألفاظ القيامة واللوامه وعظامه وبنانه إيقاعاً كان له فعل التأثير في إقناع المتلقي باختيار لفظة البنان دون غيرها وفعل الإنجاز الذي صرح به سبحانه في بداية الآية القرآنية الكريمة وهو التحدي والآخر الذي بقي مختبئ بين ثنايا النص ينتظر أهل الرسوخ في العلم ليكشفوا عن أسراره وهو الفعل الذي لا يتحقق إلا بوجود وحدوث الفعل التأثيري.

ويعد هذا العدول المتكأ على فعل القول والإنجاز والتأثير من المفارقة اللغوية لدى بعض الباحثين والتي في نظرهم "تتجه إلى مخالفة ما يجري تأكيده لما تكون عليه الحال الحاضرة فعلاً [19]" ؛حيث يتجاوز المنطوق المفارقي معنى السياق المنتمي إليه ويمتد لمعاني أخرى تدل على تفرده، باعتباره فعلا كلاميا غير مباشر يختلف في طبيعته عن الأفعال الكلامية المباشرة التي تبدو دلالتها ظاهرة للعيان متجلية للأفهام، وخير مثال على هذا الفعل الكلامي غير المباشر قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}[20] ، فلو نظرنا نظرة المتأمل في لفظة الدواب ووقفنا على سببي النزول في الآية والعدول في المفردة القرآنية لوجدنا تآلفاً بين معانيها ومعاني المفردات الأخرى في السياق القرآني ذاته، فالآية نزلت في بني عبد الدار الذين جدوا في القتال مع المشركين يوم بدر وصموا آذانهم عن سماع الحق المبين[21] ،فوصفهم سبحانه بلفظة الدواب، لتحقق هاته المفردة دقة في وصف عنادهم وإعراضهم الشديد. بل في"عدهم من البهائم ثم جعلهم شرَها ؛ لإبطالهم ما مُيزوا به وفُضلوا لأجله ، وهواستعمال العقل فيما ينفعهم من التفكر والاعتبار." [22] إن هذه العدول القرآني باستعمال مفردة الدواب دون مفردة الأنعام أو غيرها من الألفاظ الأخرى المرادفة لها في جزء من المعنى جعل" الدواب علامة على المفارقة، بما تُنبِهُ إليه في المخزون اللغوي لدى المخاطبين،من معاني البهيمية والتسخير، وحرمان التكريم...لأنها تشير إلى مدلولات خارج النص ذاته. وتتجلى بلاغة النص هنا في توظيف محمولها الدلالي، وفي جعلها تصنع تعارضاً بين حقيقة الحيوان وحقيقة الإنسان"[23] يؤدي إلى مفارقة قرآنية تحتاج إلى حسن تأمل.

فهذا التعارض بين الحقيقتين شكل من مفردة الدواب بؤرة في سياقها تختلف بمفارقتها عن استعمال لفظة الأنعام في قوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[24]،فلفظة الأنعام هنا ارتبطت بما يدل على عدم استعمال العقل عند الكفار كما حصل مع لفظة الدواب، لكن الذي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان فارقا بين البؤرتين هو اختلاف دواعي الكفر بين الصنفين ففي لفظة الدواب كان السياق القرآني في قوله تعالى:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ} يشير إلى إصرار على الكفر والجد في قتال المسلمين والإعراض عن الحق دون استحضار للعقل فوصفهم بأنهم قوم لا يعقلون تشبيهاً بالدواب التي لا تعقل، وأما في الأنعام فكان إصرارهم على الكفر وخروجهم على الطريق الصحيح غفلة من غفلات المعاندين، لأن الأنعام تقبل الرياضة والتأديب لما يُراد بها أن تسير إليه، والكافر تجده عاصياً غافلاً على الدوام لا يفقه قلبه ولا تفقه عينه ولا أذنه ما يحدث له، وهذا ما جعله سبحانه يصفهم في الآية السابقة بقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} أي: المنهمكون في غفلتهم[25] الذين لا يقبلون تأديباً ولا إرشاداً ولا نَصُوحاً .

من هنا يتبين لنا أثر العدول في تأويل آيات الخطاب القرآني، لما يحمله من مسببات تفتح النص على أفق تأملي يمنح العقل مع أدوات التفسير الأخرى مساحة للتدبر والتمعن في أسرار مفردات القرآن الكريم وتداوليتها ضمن الفضاء القرآني الرحب والإنساني، كمواقف اجتماعية ينتمي إليها الفرد انتماءً اجتماعياً ويجسدها مدلول القرآن عبر محورية مفرداته داخل السياق القرآني، ونمثل لذلك التجانس التداولي بين العدول في المفردة القرآنية والتأويل في الخطاب القرآني من خلال النماذج الآتية:

- **العدول في مفردتي أبد ودام:** الأَبَدُ هو " الدهر والجمع آباد وأُبود وفي حديث الحج قال سراقة بن مالك أَرأَيت مُتْعَتَنا هذه أَلِعامنا أَم للأَبد ؟ فقال بل هي للأَبد وفي رواية أَلعامنا هذا أَم لأَبدٍ ؟ فقال بل لأَبَدِ أَبَدٍ وفي أُخرى بل لأَبَدِ الأَبَد أَي هي لآخر الدهر وأَبَدٌ أَبيد كقولهم دهر دَهير ولا أَفعل ذلك أَبد الأَبيد وأَبَد الآباد وأَبَدَ الدَّهر وأَبيد وأَبعدَ الأَبَدِيَّة وأَبدَ الأَبدين ليس على النسب لأَنه لو كان كذلك لكانوا خلقاء أَن يقولوا الأَبديّينِ قال ابن سيده ولم نسمعه قال وعندي أَنه جمع الأَبد بالواو والنون على التشنيع والتعظيم كما قالوا أَرضون وقولهم لا أَفعله أَبدَ الآبدين كما تقول دهرَ الداهرين وعَوضَ العائضين وقالوا في المثل طال الأَبعدُ على لُبَد يضرب ذلك لكل ما قدُمَ والأَبَدُ: الدائم والتأْبيد التخليد "[26] ، وتتكرر في المعاجم العربية الإشارة إلى أن الأبد يرادف الدائم[27].

وهنا لا بد أن نقف على جوهر العلاقة الدلالية التي تربطهما للوصول إلى مواطن التقارب والاختلاف بين اللفظين وأسباب العدول من خلال السياق القرآني، فالدائم "من دامَ يَدُومُ إذا طال زمانه ودامَ الشيءُ سكن وكل شيء سكَّنته فقد أَدَمْتَه وظلٌّ دَوْمٌ وماء دَوْمٌ دائم وصَفُوهُما بالمصدر والدَّأْماءُ البحر لدَوامِ مائه وقد قيل أَصله دَوْماء فإِعْلاله على هذا شاذ ودامَ البحرُ يَدُومُ سكن"[28] ، وإذا كان الدائم هو الذي طال زمانه، فإن الأبد هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في المستقبل، وهو تلك المدة التي لا يمكن إدراك وقت انتهاءها بالتفكير والتأمل، كما يطلق على كل شيء لا نهاية له[29] ، وإذا قابلنا بين الآيات القرآنية يتضح مدلولهما ويثبت بالسياق ترادفهما وسبب عدولهما، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا }[30] ويقول تعالى: { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[31] ، ويقول تعالى: { قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}[32].

ففي سياق الآية الأولى جاء لفظ أبد مقروناً بالخلود ، ولما كان " حال كونهم { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } ، أكد الخلود بالتأبيد؛ لأنه قد يطلق على طُول المكث[33]" ، فالخلود هنا يترادف في بعض المعنى مع الدائم، لأن الخلود قد يدل على دوام المكث والبقاء[34] وطوله مع وجود تفاوت دلالي بينهما، لكن ما يُبرزه سياق الآية في قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}باستعمال التأبيد مع الخلود، هو تأكيد على أن الخلود المقصود لا يزول، لأن الأبد في هذا السياق جاء ليدل على زمن مقدرٍ لا يزول ودوامٍ مقدرٍ لا ينتهي، والمعنى نفسه يتكرر في قوله تعالى: { قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا} ، فجاء باللفظين الأبد والدوام في سياق واحد ليؤكد الفرق بينهما؛ حيث الأبد دل على الدوام الذي لا ينتهي، والدوام في قوله ما داموا دوام ينتهي بخروجهم من القرية، وهذا ما يبينه تفسير ابن عادل قائلاً: " قوله : {لَنْ نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا} [ما] مصْدَرِيَّة ظرفية و ' دَامُوا ' صِلَتُهَا ، وهي ' دَامَ ' النَّاقصة ، وخبرها الجارُّ بعدها ، وهذا الظَّرْفُ بَدَلٌ من ' أبداً ' وهُوَ بَدَلُ بَعْض من كُلّ ؛ لأنَّ الأبَدَ يعمُّ الزَّمَن المُسْتَقْبَل كله ، ودوام [الجَبَّارين] فيها بَعْضه." [35] ، فالأبد في الآية زمنٌ لا ينتهي لعمومه على المستقبل كله ، والدوام عكسه فهو بعض من الأبد الذي ينتهي بخروج الجبارين ودل على ذلك قول ابن عادل (ودوام الجبارين فيها بعضه)؛ أي بعض من هذا الأبد الذي هو الكل.

ومن الآيتين نخلص إلى أن الأبد يترادف مع الدوام في الدلالة على طول المدة وطول الزمان وطول الدهر، ويختلفان في كون الدائم منقطع بشيء يُلزم قطعه والأبد مستمرٌ بلا انتهاء ولا انقطاع، والواضح أن لفظ الأبد يتضمن في معناه معنى الدائم، فكل أبد دائم، وليس كل دائم أبد وهذا الأخير دل عليه اعتذار القوم لسيدنا موسى، "بأن في هذه البلدة –التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها–قوما جبارين، أي: ذوي خلَقٍ هائلة، وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مُصَاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها وإلا فلا طاقة لنا بهم." [36] ، فقولهم أن يخرجواْ منها فإنا داخلون تأكيد لعدم أبدية الدوام ، إضافة إلى أنه لم يرد في المعاجم العربية المشهورة ما يدل على أن الديمومة في الشيء تعني أبدية الشيء دون انتهاء.

أما في قوله تعالى: { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ }، في الآية حديث على لسان عيسى عليه السلام، يقول فيه: "ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا اللّه (وحّدوه وأطيعوه ولا تشركوا به شيئاً) وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم (أقمت فيهم) فلما توفيتني (قبضتني إليك)." [37] ، فالنيسابوري في قوله هذا بين لنا أن الدوام في الآية لا يدل على الاستمرار في الزمن المستقبل دون انقطاع، بل ينتهي بانتهاء الفعل، وهذا جلي في الآية؛ حيث لما كان عيسى عليه السلام مقيماً بينهم كان دوامه مستمر إلى حين انقطاع هذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدوام بعد أن قبضه الله سبحانه وتعالى ورفعه إليه، فسياق الآية دل على الفرق الدلالي القائم بين الدائم و الأبد، وهو الفرق الذي يجعل السياق يفاضل بينهما مراعاة لتحقيق الدلالة المقصودة.

والمعنى نفسه يتكرر في قوله تعالى: { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[38] ، ويقدم ابن عادل تفسيراً دقيقاً لمعنى ما دمت يبين فيه دلالتها على الدوام المنقطع فيقول: "قوله : **{إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً}** (استثناء مفرَّغ من الظرف العام ؛ إذ التقدير : لا يؤده إليك في جميع المُددِ والأزمنة إلا في مدة دوامك قائماً عليه ، متوكِّلاً به و ' دُمْتَ ' هذه هي الناقصةُ ، ترفع وتنصب ، وشرط إعمالها أن يتقدمها ما الظرفية كهذه الآية إذ التقدير إلا مدة دومك [ولا ينصرف ، فأما قولهم : ' يدوم ' فمضارع ' دام ' التامة بمعنى بقي ، ولكونها صلة ل ' ما ' الظرفية] لزم أن يكون بحاجة إلى كلام آخر ، ليعمل في الظرف نحو أصحبك ما دمت باكياً ولو قلت ما دام زيد قائماً من غير شيء لم يكن كلاماً . وجوز أبو البقاء في ' ما ' هذه أن تكون مصدرية فقط ، وذلك المصدر – المنسبك منها ومن دام – في محل نصب على الحال ، وهو استثناءٌ مفرَّغ – أيضاً – من الأحوال المقدَّرة العامة ، والتقدير : إلا في حال ملازمتك له ، وعلى هذا ، فيكون ' دَامَ ' هنا تامة ؛ لما تقدم من أن تقدُّم الظرفية شرط في إعمالها ، فإذا كانت تامة انتصب 'قَائماً ' على الحال"[39] ، فبين أن ما في ارتباطها بلفظة دمت دلت على أن مدة الدوام لا تستمر في المستقبل كما في لفظ الأبد، وإنما استمرارها في سياق الآية مرهوناً بفعل القيام، حيث ينتهي بانتهاءه، وقس في ذلك على كل سياق قرآني استعملت فيه لفظة دام، وقد كانت العرب تسمي المطر دِّيمَةً لدوامه أياماً، وسمت الظل الدَّوْمَ والدَّائِم، وكانت تقول كذلك دَوَّمَتِ الشمس في كبِدِ السماء[40] ، فالمطر والظل والشمس في السياقات المذكورة ينقطع دوامها ولا يستمر لحصول ما يمنعه، فالظل مثلاً ينقطع بالفيء وهو رجوعه وزواله، ودوام الشمس في كبد السماء ينقطع بحلول وقت الزوال وما بعده،

يقول الشاعر:

والشمس حَيْرى لَهَا في الجو تَدْوِيمُ مُعْرَوريا رمض الرَّضراض يركضه[41]

والمطر كذلك ينقطع دوامه بانقشاع الغيوم.

- **العدول في مفردتي أتى وجاء:** من الإتيان و " الإتْيان المَجيء أَتَيْته أَتْياً وأُتِيّاً وإِتِيّاً وإتْياناً وإِتْيانةً ومَأْتاةً جِئْته ... وآتَى إِليه الشيءَ ساقَه والأَتيُّ النهر يَسوقه الرجل إِلى أَرْضه وقيل هو المَفْتَح وكلُّ مَسيل سَهَّلْته لماءٍ أَتِيٌّ وهو الأُتِيُّ حكاه سيبويه وقيل الأُتيُّ جمعٌ وأَتَّى لأَرْضِه أَتِيّاً ساقَه ... وفي حديث ظَبْيان في صِفة دِيار ثَمُود قال وأَتَّوْا جَداوِلَها أَي سَهَّلوا طُرُق المِياه إِليها[42]" ، فإذا كان الإتيان هو المجيء فهذا يعني ترادفهما، مع وجود فرق بينهما نجده في السهولة التي تحملها مفردة الإتيان.

أما المجيء الذي تدل عليه لفظة جاء والذي يحمل في معناه مشقة وصعوبة، يقول فيه ابن منظور: " المَجِيء الإِتيان جاء جَيْئاً ومَجِيئاً وحكى سيبويه عن بعض العرب هو يَجِيكَ بحذف الهمزة وجَاء يَجيءُ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جَيْئةً ...وجاءاني فَجِئْتُه أَجِيئه أَي غالَبَني بكثرة المَجيء فغلَبْتُه ... وأَجاءَه إِلى الشيء جاءَ به وأَلجأَه واضْطَرَّه اليه ." [43] ، فالواضح من قول ابن منظور أنه جعل الإتيان مجيئاً والمجيء إتيان، لكنه أبان عن اختلاف دلالتهما من خلال ما عرضه من سياقات كلامية، فتجده يقول مستعملاً لفظ السهولة في الإتيان ليدل على ذلك الفرق فيقول:(وكلُّ مَسيل سَهَّلْته لماءٍ أَتِيٌّ) ثم يقول (وأَتَّوْا جَداوِلَها أَي سَهَّلوا طُرُق المِياه إِليها) ، ليؤكد هذا الفرق في لفظ المجيء حين يقول (وجاءاني فَجِئْتُه أَجِيئه أَي غالَبَني بكثرة المَجيء فغلَبْتُه) فكثرة المجيء والمغالبة عليه فيها صعوبة ومشقة، ثم يؤكد هذا في قوله: (وأَجاءَه إِلى الشيء جاءَ به وأَلجأَه واضْطَرَّه اليه)، وجلي أن إلجاء وإرغام واضطرار الشخص على المجيء فيه من الصعوبة والعناء ما يجعل المجيء في دلالته يختلف عن الإتيان بالرغم من ترادفهما في جزءٍ من المعنى وهو القدوم، فسواء قلت جاء فلان، أو أتى فلان فيعني ذلك أنه قَدِم، ويبقى الاختلاف في طبيعة القدوم أكان سهلاً أم فيه عناء.وتعالوا معنا نتدبر بعض السياقات القرآنية لنستشف ذلك الترادف الحاصل بين اللفظين، ونقف على أسباب العدول في المفردتين يقول الله تعالى: { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ}[44] ، يقول الماوردي: " وقال ابن عباس : هو النمرود بن كنعان بن سنحاريب بن حام بن نوح بنى الصرح في قرية الرس من سواد الكوفة ، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً وصعد منه مع النسور ، فلما علم أنه لا سبيل إلى السماء اتخذه حصناً وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فتداعى الصرح عليهم ، فهلكوا جميعاً"[45] ويقول القرطبي في معنى الإتيان الوارد في الآية: " ومعنى {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ} أي أتى أمره البنيان ، إما زلزلة أو ريحا فخربته." [46] ، فلما كان أمره سبحانه وتعالى حاصل بإرادته، أتى على هذا البنيان فهدمه رغم طوله ومتانة بناءه، كيف لا وهو القائل سبحانه "وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون "[47] ، فإذا كان أمره تعالى يتم بمجرد إشارته سبحانه، كان لزاماً في السياق القرآني أن يستعمل سبحانه جل وعلا ما يدل على تلك السهولة، فوظف لفظ أتى الذي هو مجيء بالأمر في قوله تعالى {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ} ليدل به على المعنى المراد. ودل على هذا المجيء السهل بالأمر بلفظ أتى دلالة واضحة في قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }[48] ، فلو تأملنا لفظ أتى في هذا السياق لوجدناه مشتملاً على سهولة المجيء كغيره من الآيات القرآنية. أما في قوله تعالى: { فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ}، ففيه دلالة أخرى على عظمة القرآن في اختياره اللفظ المناسب للسياق المناسب دون مبالغة أو تفريط، ولا يمكن لعاقل أن يشك في ذلك. وتأمل معي هاته الآية لتلمح بدلالة العقل أن البناء في طبيعته أمر فيه من الإتقان والرص والإحكام ما يدل على صعوبة ذلك على غير العارفين به، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}[49]، تشبيه بالبناء الذي يُلزق بعضه إلى بعض حتى يصير ثابت[50]،وأمام صعوبة بناء الصرح الذي أوجده النمرود وأتقنه، جاء القرآن بلفظٍ يُثبت سهولة هدمه من لدن الله سبحانه وتعالى فقال: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ}،أي: جاء عليه بأمره لا بذاته، قال الشاعر:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

متى يبلغُ البنيانُ يوماً تَمامه إذا كنت تبنيه وغيرُك يهدِمُ[51] .

فما الفائدة إذا كنت تتعب في البناء وتشقى بعناء وإتقان،ويَسهُلُ على غيرك هدم ما بنيت.

فلعل هذا الترجيح الدلالي الذي أخذنا به في استنباط معنى لفظ الإتيان من السياق القرآني مراعين في ذلك ما جاورها في السياق من ألفاظ، هو من الطرائق اللغوية التي تسنح لنا بالنظر إلى الدلالات اللفظية التي تشترك الألفاظ في بعضها وتفترق في البعض الآخر الذي يُلزم صاحب الخطاب بالمفاضلة بينها، فيختار منها ما يلائم السياق ويتوخى معاني النظم والتركيب.

وإذا جئنا لتطبيق ذلك على لفظ جاء مراعينا دلالته في السياق وترادفه مع الإتيان، للمسنا تقاطعاً بينهما في التعبير عن المعنى العام واختلافاً في التعبير عن المعنى الخاص الذي اقتضاه سياق كل منهما، قال تعالى: {فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا} [52] ، والمخاض الذي جاء مريم عليها السلام كما هو معروف ذلك الذي يصحبه وجعٌ وشدٌ لايُطاق عند الولادة، وكان لشدة وقعه أن جعل مريم ابنة عمران تتمنى الموت، وزاد ذلك انعدام الماء والكلء ووحشة في الصدر جسدت ألمها الشديد[53] ، قال تعالى على لسانها: {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا}[54] ، فأمام شدة حالها وعظيم خطبها ومعاناتها ما كان لهذا السياق القرآني أن يدل على ذلك لو أنه اشتمل على لفظ الإتيان، فقال سبحانه مفاضلاً بينهما: "فأجاءها المخاض"، ليعبر تعبيراً دقيقاً عن معنى المجيء الدال على الإتيان بشكل عام وعن المجيء الصعب والشاق الغالب على سياق الآية بشكل خاص، "لكن المجيء أعم من الإتيان فهو يستعمل في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره" [55].

فالذي يأتي في الأعيان كقوله تعالى: { وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} [56] ، وفي المعاني كقوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا } [57] ، والذي يأتي بالذات فكقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ } [58] ، وأما الذي يأتي بالأمر فمثل قوله تعالى: { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [59] ، وفي هاته الآية الأخيرة ما يطرح تساؤلاً على المتدبر لكتاب الله المتفحص لدلالة ألفاظه، كيف يستعمل الله تعالى جاء ويستعمل أتى بعدها في سياق واحد؟ والجواب أن لفظ جاء في الآية بقي دالاً على المجيء الصعب رغم ارتباطه بأمره تعالى ، فاستعمله سبحانه ليدل على صعوبة إقناع سيدنا إبراهيم بعد جداله الطويل مع الرسل حول مصير قوم لوط، وهذا أومأ عليه أبن عجيبة قائـــلاً: "جعل { يُجادلنا } أي : يخاصم رسلنا { في } شأن { قوم لوطٍ }، ويدفـع عنهم ، قال:{ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا} [60] ، { إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ }، غير عجـول من الانتقام إلى من أسـاء اليه. { أواهٌ }؛ كثير التأوه والتأسف على النـاس،{ منيب }، راجع إلى الله .والمقصود من ذلك : بيان الحامل له على المجادلة ، وهي : رقة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قلبه وفرط ترحمه . قال تعالى على لسان الملائكة:{يا إبراهيمُ أعرضْ عن هذا } ، الجدال؛ { إنه قد جاء أمرُ ربك } بهلاكهم ، ونفذ قضاؤه الأزلي فيهم ، ولا مرد لما قضى ، { وإنهم آتيهم عذاب غير مردود } ؛ غير مصروف بجدال ولا دعاء ، ولا غير ذلك. "[61] ، فصعوبة إقناعه لرقة قلبه على أولئك القوم وإشفاقه عليهم، وما كان من جدال بينه وبين الرسل ودفاعه المستميت، لم يكن للتعبير عنه سوى استعمال لفظ جاء، وما دل على تلك الصعوبة والشدة في المجيء ما ذكره بن عجيبة من كلمات تعبر عنها، تمثلت في (خصامه، جداله، تأوهه، تأسفه، رقة قلبه، فرط ترحمه)، ثم استعمل تعالى بعده لفظ أتى للدلالة على سهولة تنفيذ الأمر من الله سبحانه بإهلاكهم وتسليط العذاب عليهم. و ننظر ترادفاً دلالياً بين اللفظين في قوله تعالى: { إِنَّهُ قَدْ جاء أمر ربك} و{أتى أمر الله}، فكلاهما دالٌ على أن الأمرَ لم يحصل بعد، لكنه واقعٌ في علم الله ، ولابد من تحققه ، فخاطبهم قائلاً: لا تطلبوه قبل حينه وتستعجلواْ حدوثه لأنه واقع لا محالة،وكلا الأمرين في الآيتين قادمٌ وغير مصروف، إلا أن أحدهما بالمجيء والآخر بالإتيان، فاللفظان كما نلمح في هذا التحليل يترادفان في بعض المعنى ويفترقان في الدلالة على سهولة الإتيان وصعوبة المجيء.

ودلالة المجيء على الصعب والشاق والشديد تتكرر في قوله تعالى " وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى" ، ومعنى قوله: " من أقصا المدينة يسعى (قال الكلبي : يسرع في مشيه لينذره، مقاتل : يمشي على رجليه ،)" [62] ، وفي قول الكلبي ومقاتل دليل على التعب والإرهاق الذي صاحب المسرع خاصة وأنه كان يحمل خبراً فيه وقع شديد على سامعه، حيث قال له: " يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك؛ أي يهمّون بقتلك ويتشاورون فيك ، وقيل : يأمر بعضهم بعضاً ."[63] ، فضراوة الحدث وشدة وقع الخبر على موسى عليه السلام، وإسراع المنذر بالمشي في إيصال الخبر له، ما كان للفعل أتى أن يجسدها في الآية السابقة.

فتمام المعنى باختيار اللفظ المحقق للدلالة، ذلك الذي استقرأناه في استعمال جاء كما بينا في هذا التحليل الدلالي الذي يبين لمتدبر القرآن أن العدول عن لفظة إلى أخرى تحيط به مقاصد قرآنية وأسرار ربانية جليلة منحته حضوراً إعجازيا في بيان قيمة المفردة الدلالية داخل السياق وأهميتها الاجتماعية خارجه، لذلك تعددت أنماطه في المفردات القرآنية.

وإذا التفتنا إلى بعض هذه الأنماط نجد أن هناك عدول عن صيغة المفعول إلى الفاعل في المفردة القرآنية كما في قوله تعالى: { فَلْيَنْظُرْ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ }[64] أي: مدفوق، وعدول عن الإفراد إلى ما حقه أن يجمع كما في قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}[65] والمقصود بالدبر؛ "أي الأدبار بدليل قوله تعالى : { فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ }[66] وقوله تعالى : {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ }[67]: أي الأطفال... ونحو هذا كثير في القرآن ، وفي كلام العرب "[68].

وما قدمناه هو غيض من فيض يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة للكشف عن مكنوناته ذلك أن قضية العدول في المفردة القرآنية سر من أسرار الإعجاز القرآني الذي أخذ بعداً تداولياً في الخطاب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القرآني لا يدرك إلا بالتدبر الرصين القائم على معرفة فصاحة الكلمات القرآنية وبلاغة خطابها الرباني والذي يفضي إلى إثبات شرعية حضور المفردة القرآنية كبؤرة لفهم السياق في التفسير القرآني .

هوامش الدراسة :

1 - محاولات في تحليل الخطاب، صابر الحباشة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2009م، ص133.
2 - لسان العرب، ابن منظور، مادة عدل، دار صادر، بيروت، ط1، د.ت، ج11، ص430.
3 - الخصائص ،أبي الفتح عثمان بن جني، تحق : محمد علي النجار، عالم الكتب - بيروت، ج3، ص46.
4 - العدول الصرفي في القرآن الكريم، ماجدة صلاح حسن، المجلة الجامعة، مركز البحوث والدراسات العليا بجامعة الزاوية، ليبيا، العدد 11، 2009م، ص18.
5 - النكت في إعجاز القرآن، الرماني، تحق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف مصر، د.ت، ص102.
6 - سورة هود، الآية: 44.
7 - دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحق، أبو فهر ومحمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط3، 1992م، ص45.
8 - سورة القيامة، الآية:1-5.
9 - محاولات في تحليل الخطاب، ص134، 136.
10 - ينظر: التداولية، فرناند هارين، ترجمة: زياد عز الدين العوف، الآداب العالمية، الموقع: www.reefnet.gov.sy ، ص27
11 - ينظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2007م، ص45.
12 - التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة ، بيروت- لبنان، ط1، 2005م، ص 10.
13 - تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 2002م، ص564.
14 - محاولات في تحليل الخطاب، ص135
15 - الوظائف التداولية في اللغة العربية، أحمد المتوكل، دار الثقافة، الدارالبيضاء- المغرب، ط1، 1985م، ص28.
16 - ينظر: المرجع نفسه، ص.28.
17 - دلائل الإعجاز، ص49
18 - ينظر: تداولية النص الشعري، جمهرة أشعار العرب أنموذجاً، شيتر رحيمة، إشراف: عبد القادر داخمي، أطروحة دكتورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج الأخضر باتنة، 2008/2009م، ص ' ز' من مقدمة الكتاب.
19 -المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، محمد العبد، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، ط2، 2002م، ص19.
20 - سورة الأنفال، الآية: 22.

21 - ينظر: البحر المديد، ابن عجيبة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 2002م، ج3، ص24.
22 - البحر المديد، ج3، ص24.
23 - المفارقة القرآنية، ص113.
24 - سورة الأعراف، الآية: 179

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

25 - البحر المديد، ج2، ص577.
26 - لسان العرب، مادة أبد، ج3، ص 68.
27 - ينظر: مختار الصحاح، مادة أبد ، والمفردات مادة أبد، ص59، تح: داوودي، ص11.
28 - لسان العرب، مادة دوم، ج 12، ص 212.
29 - ينظر: التعريفات، مادة الأبد، ص63.
30 - سورة النساء، الآية: 57.
31 - سورة المائدة، الآية: 117.
32 - سورة المائدة، الآية: 24.
33 - البحر المديد، ج3، ص 85.
34 - مختار الصحاح، مادة خلد، ص 110.
35 - اللباب في علوم الكتاب، ج7، ص 274.
36 - تفسير ابن كثير، ج3، ص 75.
37 - الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ، ط1، 2002، مج4، ص 129.
38 - سورة آل عمران، الآية: 75.
39 - اللباب في علوم الكتاب، ج5، ص333.
40 - ينظر: المفردات مادة دوم، ص322، 323، تح: داوودي.
41 - ديوان ذي الرمة ، تح: مطيع بيلي، المكتب الإسلامي، بغداد، ص660.
42 - لسان العرب ، مادة أتى، ج2، ص588.
43 - لسان العرب ، مادة جيأ، ج1، ص51.
44 - سور النحل، الآية: 26.
45 - النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، تح: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، ص 142.
46 - الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت671 هـ)، تح: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2003 م، ج10، ص 97.
47 - سورة يس، الآية: 82.

48 - سورة النحل، الآية: 01.
49- سورة الصف، الآية: 04.
50 - ينظر: تفسير الجلالين، ص 533.
51 - معجم الاستشهادات، مادة البناء، ص101.
52 - سورة مريم، الآية: 23.
53 - ينظر: تفسير الجلالين، ص290.
54 - سورة مريم، الآية: 23.
55 - المفردات، مادة جاء، ص212، تح: داوودي.
56 - سورة القصص، الآية:20.
57 - سورة الفرقان، 04.
58 - سورة غافر، الآية: 34.
59 - سورة هود، الآيات:74، 75، 76.
60 - سورة العنكبوت، الآية: 32.
61 - البحر المديد، ج3، ص312.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

62 - الكشف والبيان، ج7، ص242.
63 - المصدر نفسه، ج7، ص242.
64 - سورة الطارق، الآيتين: 5،6
65 - سورة القمر، الآية: 45
66 - سورة الأنفال، الآية:15
67 - سورة النور، الآية: 31
68 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، تح : مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، 1995م، ج4، ص274.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

www.manaraa.com